مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 07 / العـدد: 02 (2021)،ص 361- 374

مجازر العقيد دوسانت آرنو سنة بمنطقة الشلف 1845 (مذبحة الفراشيش، وإبادة سكان تنس نموذجا)

The massacres of Colonel Doussant Arnaud in the Chlef region in 1845 (the Farachish massacre, and the extermination of the people of Tennis)

نجاة بية[1*]، محمد بن موسى[2]

[1] المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، (الجزائر)،bia.nadjet@yahoo.fr

[2] المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، (الجزائر) ،bmohammed179@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/27 تاريخ القبول: 2021/10/05 تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص:

تصدى سكان الظهرة بالغرب الجزائري تحت قيادة الشريف بومعزة 1844-1847 م جيش المحتل بكل طاقاته البشرية والمادية لطرده، واسترجاع سيادته المغتصبة. وبالنظر إلى ما قدمه أهل المنطقة من تضحيات في حلبة الصراع إلا أن سلسلة المجازر الدموية بقيادة ضباط سفاحون أمثال العقيد دوسانت آرنو الذي تفنن في مجزتي الفراشيش وكهف تنس،

هدفنا من هذا العمل هو كشف حقيقة من ادّعى نشر الحضارة على حساب إزهاق أرواح بريئة، وتعريف النشء بجرائم المستعمر الذي يستبيح أرواحا لأجل استمرار مخططاته الاستعمارية. لنخرج في الأخير بنتائج تدعو إلى التفاؤل في اعتبار مثل هذه المجازر دليلا قاطعا على فشل المستعمر ، و بداية انطلاق مقاومات شعبية في مناطق أخرى من الوطن، وكذلك غرس قيم الدين (الجهاد) للدفاع عن الوطن بكل الوسائل المتاحة.

كلمات مفتاحية: المستعمر، الظهرة، المجازر، المقاومة ، السفاحون.

Abstract:

The inhabitants of Dahra in western Algeria by the leadership of Cherif Boumaaza 1844-1847 confronted the occupier's army with all its human and material energies to expel it and restore its usurped sovereignty. In view of the sacrifices made by the people of the region in the arena of conflict, but the series of bloody massacres led by thugs officers such as Colonel Dusant Arnaud, who mastered the farashish slaughterhouses and the Cave Tennis,

Our aim in this work is to reveal the truth of those who claimed to spread civilization at the expense of the loss of innocent lives, and to inform the youth about the crimes of the colonizer who desecrates lives for the sake of the continuation of his colonial plans. In the end, let us come up with results that call for optimism in considering such massacres as conclusive evidence of the failure of the colonizer, and the beginning of popular resistance in other regions of the country, as well as implanting the values of religion to defend the homeland by all available means.

Keywords: *The colonialists; the Dahra; the massacres; the resistance; the thugs.*

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

لم يستثن المستعمر الغاشم في سياسته الاستعمارية ضد المجتمع الجزائري لا الصغير، ولا الكبير، لا الشاب ولا الشيخ، بل زاد في غطرسته وجبروته لما راح يؤذي حتى الحيوانات ومصادر عيش الجزائريين، متجاوزا في ذلك حدود القانون والأعراف الدولية السائدة، فهو لم يطبق شعار الثورة الفرنسية خارج حدود دولته، بل استغلها كشعارات وهمية في ستعمراته في القارة الإفريقية، ولعل من أبرز ما قام به المستعمر في الجزائر من طرف قواده وجنرالاته هو المجازر التي ارتكبها دو سانت آرنو بأحد مناطق الظهرة وهي أورليانفيل المعروفة حاليا "الشلف".

من هنا يمكننا أن نطرح الإشكالية التالية : ما هي أبعاد وخلفيات دو سانت آرنو من وراء المجازر المرتكبة بالظهرة؟ وما انعكاساتها على سكان المنطقة؟.

الفرضيات : تتمثل فرضيات البحث فيما يلي:

- الفرضية الأولى: المستعمر الفرنسي يوسع مناطق احتلاله ويتوجه نحو مختلف مناطق الساحل الجزائري، إلى غاية وصوله إلى منطقة الشلف.

- الفرضية الثانية : دعم سياسة التوسع الاستعماري بسياسة القمع والزجر والرعب من خلال سلسلة المجازر المرتكبة ضد شعب بريئ، والعملية لم تتوقف هنا بل مست حتى الأرض والحيوانات مثلما سنراه في مجازر الظهرة بقيادة دو سانت آرنو.

- الفرضية الثالثة : لقد كان لتلك السياسة المرعبة انعكاسات سلبية أكثر منها إيجابية، وبظهور مقاومات شعبية تصدت لها مثل مقاومة الشريف بومعزة.

أهداف البحث : كان الهدف من هذا البحث :

1- التعريف بمنطقة الشلف واستحضار تاريخ المنطقة خلال العهد الاستعماري.

2- كشف حقيقة المستعمر للقارئ ليعي هذا الأخير أن فرنسا منذ غزوها الجزائر انتهجت سياسة التوسع عبر كامل التراب الوطني مدعمة بسياسة زجرية عفوية من أبطال قوادها وهي ارتكاب المجازر.
3- اطلاع القارئ على المجازر التي ارتكبتها فرنسا بالمنطقة وردود الفعل تجاهها.
4- إثراء المجلة بنوع من الدراسات الأكاديمية إضافة إلى الدراسات الأخرى وبمواضيع وطنية تحكي تاريخ البلاد خلال فترة محددة.

منهجية البحث :

للإجابة عن الإشكالية المطروحة اتبعت المنهج التّاريخي، الوصفي والتّحليلي، باعتبار أنّ المنهج الوصفي خدم الدّراسة في وصف مختلف الأحداث التّاريخيّة والتّعريف بها زمانيّا ومكانيّا فدراستنا لتاريخ منطقة الشلف وتوضيح المجازر المرتكبة في حقها وردود تجاهها ، استوجب وصفها وذكر مجالات تطبيقها وأثارها على الجزائريّين، وقد تدعّمت هاته الدّراسة بالمنهج التّاريخي من خلال ربطها بالتّاريخ الذي ظهرت فيه والأحداث المسايرة لها، أمّا المنهج التّحليلي فهو الآخر سمح بتحليل دراستي للموضوع تحليلا موضوعيّا، ومكّنني من إظهار أبعاد وخلفيّات الإدارة الاستعمارية من وراء إتباعها لمثل تلك السياسة التعسفية(المجازر).

2. ظهور مقاومة الشريف بومعزة في الغرب الجزائري :

1.2 التعريف بالشريف بومعزة وتحضيراته للمقاومة:

الشريف "بومعزة"، شاب مرابطي"رجل الماعز"(نجادي بوعلام،309:2007)، واسمه الحقيقي "سي محمد بن عبد الله"،(محفوظ قداش،107:2008)، ينتمي إلى قبيلة أولاد سيدي واضح من نهر الشلف(الونشريس)، ولد سنة 1820م، تجنّد وهو صغير في الكتائب النظامية للأمير عبد القادر الجزائري وعمره أقل من 20 سنة، يقال عنه أنه كان مؤيدا للدرقاوة، فبعد تفريق كتيبته انسحب إلى الونشريس ليقضي حياته في التأمل والصلاة، وهو يقاسم وحدته مع معزته، ومن هنا كان اسمه (محفوظ قداش،107،ص 2008)

أراد بومعزة استئناف الجهاد وأن يكون "مولى الساعة" الذي ينتصر على الكفار وينصر الإسلام، ومن هنا شهرته المقدسة. كان مقتنعا بأنّه مكلف بمهمة،لا بد أن يقوم بها، فبدأ الدعاية في القبائل يطلب فيها من الرجال أن يحضّروا أنفسهم للجهاد بالسلاح والصوم والصلاة، واعدا الموتى بالجنة ومن يبقون على قيد الحياة الطيبات من الأرزاق في الدنيا، فكانت شهرته تزيد كلّما قام بزيارات للقبائل.فاستجاب له من كان خاضعا أو عونا للفرنسيين،الذين كانوا يكتبون له ويزودونه بالأخبار سرا (محفوظ قداش،2008، ص 107).

أنشأ "بومعزة" منظمة فيها أعوان إداريون(خوجة،خزناجي وشاوش)، وجيشا(عساكر وخيالة)، حيث جند من الجبل رجالا أقوياء قال عنهم ضابط فرنسي:« رجال خارقون للعادة في الحرب، يرون فارسا على مرأى منظارنا ويتحدثون على بعد فرسخين ويعرفون الدروب المجهولة التي تغطيها الثلوج والضباب الكثيف ويرون ويسمعون عندما لا يرى أحد ولا يسمع شيئا».(محفوظ قداش،2008،ص 109).

انتهج "بومعزة" خطة تتوافق مع خطة "الأمير عبد القادر"، وهي ترتكز على مهاجمة المواقع الفرنسية خالقا عدم الاستقرار في المنطقة، واضعا العديد من الوحدات الفرنسية في حالة من التأهب على غرار المفرزات المتحركة التي يقودها الجنرال"بيجو"، كما حدد أيضا المواقع العسكرية بشرشال والأصنام والمدية وملیانة وأجبرهم على تبني نظام دفاعي يسمح أيضا لفرق "الأمير عبد القادر" باستعادة الأنفاس. إن هذه الخطة التي أرادها "الأمير عبد القادر" وتبناها قد تجسدت في أرض الواقع بعد انتصار سيدي إبراهيم الذي ألحق هزيمة نكراء بالفرق الفرنسية، كان لهذا الانتصار نتائج إيجابية بالنسبة للقبائل المترددة في التحالف مع " الأمير عبد القادر" وتلك التي تحالفت مع "بومعزة" الذي استطاع بحنكته أن يستميلها. انضمت إلى لوائه بشجاعته وخصاله على غرار قبيلة السبايعية التي منحته 200 من المشاة و300 من الخيالة، كما نجح في إقامة إدارة محلية مكلفة بتسيير المالية وشراء المواد الغذائية والدفع للجنود. علاوة على ذلك قام بمعاقبة القبائل الخاضعة للعدو(بوعلام نجادي،2007،ص ص 309-310).

مُورِس قمع حاد من قبل الفرنسيين الذين فهموا أنّه يجب القضاء على هذا القائد، فدمرت محاصيل القبائل المنشقة وأحرقت،أمّا القطعان فقد ساعدت في إطعام العدو. غير أن شكل هذا العنف لم يولّد إلا حماسا قويا في فِرق "بومعزة" أكثر فأكثر ، أما كما رد فعل العدو كان بارتكابه أكبر عملية إبادة في القرن التاسع عشر(إحراق قبيلة أولاد رياح). (بوعلام نجادي،2007،ص ص 309-310).

2.2 مقاومة الشريف بومعزة المستعمر الغازي :

بدأ بومعزة الهجوم على القبائل المعادية والقيّاد الذين عينهم الفرنسيون، ويعاقب من لا ينضمون إلى الجهاد.وقد واجه الجيش الفرنسي في"عين أمران" يوم 13 أفريل 1845م (Saint Arnaud,1864 ,12) قرب مازونة التي زودت الشريف بالعديد من الأفواج(محفوظ قداش،2008، ص 910) .

وصلت الانتفاضة إلى دائرة "تنس" التي هاجم قائدها "محمد بن هاني" المعسكر الفرنسي، وفي نفس الوقت انتفضت كل ناحية مدينة الشلف، كل قبائل الشلف والونشريس التحقت "ببومعزة"، فتجرّأ هذا الأخير على الهجوم على مدينة الشلف ولكنه فشل أمام مدافع المدينة،،وذلك بسبب الإستراتيجية الشاملة للمستعمر في منطقة الظهرة وسهل شلف والونشريس وتتمة للحملة الفرنسية التي قادها "بيجو" ماي –جوان 1845.(Quesnot (f), 1851,207)

أرسل الفرنسيون عدة مفارز لإرغاممن القبائل على تسليم البنادق والخيل، وقاموا بتدمير القرى ومحاصيل القبائل التي رفضت الاستسلام، تحت قيادة العقيد" دوسانت آرنو. وهو ابن مدينة بباريس 1798، درس في ثانوية نابليون، التحق بالجيش في 1816م بكورسيكا، تطوع في حرب الاستقلال اليونانية، وصل إلى الجزائر في 1837م وشارك في الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة وجيجل، وبعدها تم ترقيته إلى رتبة مقدم عام سنة 1842 ثم عقيد سنة 1848م نتيجة مشاركته في احتلال الموقع الاستراتيجي بالثنية موزاية واحتلال معسكر. تولى قيادة الدائرة العسكرية بمليانة و"أورليانفيل"، خاض عدة معارك ضد الشريف بومعزة، كما تولى القيادة في مستغانم ثم الجزائر،خاض عدة حملات قمعية في منطقة القبائل والشرق الجزائري، وفي 1850م عين قائدا أعلى لمقاطعة قسنطينة، نشرت رسائله في جزئين عام 1885م،أطلق اسمه على مستوطنة أسست عام 1862م (العلمة حاليا)، توفي في 1854م..(Narcisse Faucon,1889 ,141-145).

لم يكن أمام "بومعزة" إلّا أن يغير خطته،فلم يقم بمعارك كبيرة ولكنه هاجم القبائل التي تحالفت مع فرنسا فارضا على القياد الذين هم في خدمة فرنسا تزويده بالأخبار والانضمام إلى كفاحه، فمن بين 80 قائدا، التحق 68 "ببومعزة" (محفوظ قداش،2008، ص 109).

فرغم حرب الإبادة التي قام بها "سانت آرنو" بقي " بومعزة" خارج قبضة اليد. كانت الانتفاضة تنشأ دائما فأضاف "بيجو" مفرزتين إلى جانب القائد العسكري "سانت آرنو"المزداد بباريس 1798، والذي درس في ثانوية نابليون والتحق بالجيش في 1816م بكورسيكا، تطوع في حرب الاستقلال اليونانية، وصل إلى الجزائر في 1837م وشارك في الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة وجيجل، وبعدها تم ترقيته إلى رتبة مقدم عام سنة 1842 ثم عقيد سنة 1848م نتيجة مشاركته في احتلال الموقع الاستراتيجي بالثنية موزاية واحتلال معسكر. تولى قيادة الدائرة العسكرية بمليانة و"أورليانفيل"، خاض عدة معارك ضد الشريف بومعزة، كما تولى القيادة في مستغانم ثم الجزائر،خاض عدة حملات قمعية في منطقة القبائل والشرق الجزائري، وفي 1850م عين قائدا أعلى لمقاطعة قسنطينة، نشرت رسائله في جزئين عام 1885م،أطلق اسمه على مستوطنة أسست عام 1862م (العلمة حاليا)، توفي في 1854م.(Narcisse Faucon,1889 ,141-145).

كانت أعمال العقيد بتوصيات من الجنرال "بيليسي"وهو جون جاك دوق دومالاكوف المولود في 1794/11/06 بمدينة ماروم الفرنسية، تخرج من سان سير العسكرية في 1815م في سلاح المدفعية،في 1820 تقلّد رتبة ملازم أول ثم نقيب في 1828م، شارك في الحملة على الجزائر1830 ثم عاد إلى فرنسا وفي 1839 رجع إلى الجزائر برتبة مقدم،تولى قيادة مستغانم-وشارك في احتلال الشلف 1842 وفليتة 1843، ترقى برتبة عقيد في جويلية 1843م، شارك في معركة إيسلي في 1844 ضد المغرب، اشتهر بمجزرة غار الفراشيش بالظهرة جوان 1845م،وأصبح حاكما بالنيابة في أفريل

1851/12/10م، كُلف بقمع المقاومة في القبائل1851م، ثم الأغواط 1852م وفي 1860 عُين حاكما عاما في الجزائر، توفي في الجزائر يوم 22 /05/ 1864م.(Narcisse Faucon,1889 ,141-145).

استّأنف "بومعزة" مضايقة العدو ،غير أنّه خسر العديد من الجنود(بوعلام نجادي، 2007،ص ص 129-130)،وفي هذه الفترة برز"الأمير عبد القادر" في وادي التافنة، واستهدفت خطته في منطقة سيدي إبراهيم القضاء على مفرزة يقودها العقيد "مونتانياك" 21-21 ديسمبر1845م،وبعد هذا الانتصار هاجم" الأمير عبد القادر" مفرزة من 200 رجل كانت متوجهة إلى عين تموشنت، فسجنوا كلهم من غير حرب وقدموا إلى القبائل، فكانت شهرة "الأمير عبد القادر" اللامع كالشمس كبيرة جدا. التحق بالمعسكر العديد من القياد الذين عينهم "بيجو". وفي نفس الوقت اندلعت ثورات في ناحية مدينة الجزائر مع الخليفة بن سالم المقيم في ناحية دليس(محفوظ قداش،2008،ص 111).

حاول "عبد القادر" أن يلتحق بقبائل الجنوب، وظهر "بومعزة" من جديد في ناحية مازونة، ثم انسحب عند الفليتة حيث كان العديد من المرابطين يدعون إلى الثورة، فكانت الانتفاضة تقريبا عارمة. استأنف " بومعزة" الهجوم لأنه تشجع بانتصارات "عبد القادر" فتوجه قرب مستغانم ثم في ناحية تيارت، وكان قد أقام "عبد القادر" في الونشريس، وعين "بومعزة خليفته، أما العدو الفرنسي فأرسل بقيادة "بيجو" 17 مفرزة ضد محاربي "الأمير و بومعزة وبن سالم". و بقي "عبد القادر" خارج قبضة العدو، واستطاع أن يلتحق بالمغرب عن طريق فقيق. وعندما صارت دائرته في حاجة إلى المؤن، صعد الأمير حيث أفشل مجموعة مغربية أتت لإيقافه، ثم نزل مع دائرته نهر المولودية التي قطعها، فكان الفرنسيون ينتظرونه قرب وجدة. فطلب منه أوفياؤه أن يتخلى عن دائرته ويلتحق بالجنوب(محفوظ قداش،2008،ص 111).

في 05 مارس 1846م حاول" الشريف بومعزة" التوغل في مرتفعات الظهرة، فتحرك طابور تنس واستنجد بالعقيد "بيليسي" القائد الأعلى لمستغانم والعقيد "سانت آرنو"، لكن الشريف"بومعزة" عرف كيف يوقع بقسم من طابور"كانروبير" بعد أن جر كتيبة الزواف إلى القصع بمنحدرات واد الخميس، أين وقع اشتباك بين الطرفين وفقد الفرنسيون على إثره جنديين و05جرحى.وأمام هذا الضغط المتزايد على سكان الظهرة والشلف والأضرار التي ألحقت بهم جراء الطوابير الفرنسية (مستغانم-تنس-ثنية الحد ومليانة) اضطر الشريف "بومعزة" إلى الانسحاب نحو" الأمير عبد القادر عند أولاد سيدي الشيخ و أولاد نايل، ثم التحق بأولاد جلال. غير أن القوم بقيادة شيخ العرب"بوعزيز بن قانة"والقوات الفرنسية بقيادة سان جرمان ضيقوا الخناق عليه، فعاد إلى شلف وسلم نفسه إلى العقيد" سانت آرنو" بأورليانفيل يوم 13 أفريل 1847م،ثم أبعدته السلطات الفرنسية إلى باريس في 05 ماي 1847م. ..(Quesnot (f), 1851,260).

3. مجازر العقيد دوسانت آرنو في الشلف:

1.3 مجزرة الفراشيح (أولاد رياح):

تعود عملية تنفيذ هذه الإبادة إلى عهد لويس فيليب (1773-1850) وهو ملك فرنسا من1830 إلى 1848م، قامت ضدّه ثورة أزاحته من الحكم سنة1848م،(محمّد السعيد قاصري، 2012،ص 305) والتي تعد عار القرن التاسع عشر بالنسبة للجيش الفرنسي ،إذ لم يقع أبدا مثل هذا العمل في الحروب الأوروبية (بوعلام نجادي،56:2007)..وحيث أن القوات الفرنسية بعد أن فرضت سيطرتها على الغرب الجزائري ودفعت ب"الأمير عبد القادر"إلى السهوب، قاد الماريشال"بيجو"حملة ضد سكان الظهرة والونشريس ،والتي ظهر فيها الشريف بومعزة معلنا الجهاد ضد الغزاة(بن يوسف تلمساني،2005 ، ص 46). وأمام خطورة ثورة بومعزة توجه الجنرال "بيجو" بنفسه إلى جبال الظهرة و وصل إليها يوم 9 ماي، وبقي بالمنطقة إلى يوم 12 جوان 1845 .وقد شارك بنفسه في المعارك ومواجهة الثوار،، وتعرف هذه المعركة التي وقعت بناحية الظهرة في يناير 1845 بانتفاضة الطرق الصوفية وقد شاركت فيها خاصة الطرق القادرية، الرحمانية، الدرقاوية ،الطيبية وفروعها(أبو القاسم سعد الله،2007، ص 228).

يعود سبب هذه المجزرة إلى دعم قبيلة أولاد رياح القاطنة بجبال الظهرة غرب الجزائر العاصمة لمقاومة الشيخ الشريف محمد بن عبد الله(R.Bousquet,1907:142) وهي المقاومة التي استمرت مابين 1844و 1847م.أمر الماريشال" بيجو" القوات الفرنسية بقيادة كل من العقيد" سانت آرنو"و"بيليسي" والعقيد"لادميرو "Admirons" بمنطقة الظهرة لمعاقبة القبائل التي انضمت إلى المقاومة الشعبية بقيادة" الشريف بومعزة"،وعملت هذه القوات الفرنسية على ممارسة الضغط ضد هذه القبائل، حيث نفذ هذه المجزرة الجنرال"بيليسي. ووجه الجنرال"بيجو" رسالة إلى "بيليسي" من الشلف في 11جوان1845م،يقول فيها:« إذا التجأ هؤلاء قطاع الطرق إلى مغارتهم فافعل معهم مثلما فعل كافينياك بقبيلة صبيح، شدد في تدخينهم حتى يموتوا كالثعالب» (محمد عيساوي وشريخي نبيل،2011،ص ص 111--112).وفي 17 جوان1845م قصد العقيد "بيليسي" سهل بوجراس بحثا عن قبيلة أولاد رياح، التي تقع شرق مستغانم، وبالتحديد في بلدية النقمارية (النكمارية) التي تتواجد بها جبال شامخة تحمل اسم جبال الظهرة، تغطيها غابات كثيفة، طرقاتها وعرة تؤدي إلى مغارة الفراشيش، التي رفضت الانصياع والخضوع للقياد الموالين للإدارة الاستعمارية، غزاها "بيليسي" وأحرق ما وجد منها طبقا لسياسة الأرض المحروقة، التي جاء بها سيده "بيجو". وخوفا من انتقام إدارة الاحتلال العسكرية، فإن قبيلة أولاد رياح اعتصمت بإحدى الأغوار الموجودة في جبال الظهرة الموجودة في جبال الظهرة المطلة على مدينة تنس على أمل ألا تصلهم القوات الفرنسية، ويسمى هذا الغور أو الغار بغار الفراشيش الكائن بجبال الظهرة، يبعد بـ 50 كلم عن منطقة سيدي على،وطوله يصل إلى

حوالي 200م(محفوظ قداش،2008، ص 110).وحسب بعض المصادر أن له مدخلين ،الرئيسي في الجنوب الغربي من الجبل، والثاني من جهة الجنوب الشرقي، يصل عمق المغارة إلى 200م، ويقدر عدد سكانه بحوالي ألف شخص1000من نساء وأطفال وشيوخ بالإضافة إلى ماشيتهم وأمتعتهم التي حصنوها في هذا الغار ظنا منهم أنه حصن طبيعي إذا تمكن الثوار المسلحون من مدخليه فإنّهم سيظلون أسياد الموقف بسهولة(أبو القاسم سعد الله،2007،ص 228).

حاصر الجنرال"بيليسي" وجنوده الغار من جميع الجهات وطالب القبيلة بالاستسلام، فردّت عليه بإطلاق الرصاص، وبعد رفض القبيلة الاستسلام والخروج، أمر الجنرال"بيليسي" جنوده بجلب حزم الحطب ووضعها في المدخل الرئيسي، ثم أمر بإشعاله.استمرت ألسنة النيران تلتهب طيلة الليل والدخان يتسرب داخل الغار مما أودى بحياة من بداخله من البشر والحيوانات اختناقا ليلة 19 إلى 20 جوان 1845م(بن يوسف تلمساني،2005،ص 54). كان ذلك في فصل الصيف.لقد تمركز الجنود في مواقعهم لإفشال أية محاولة للهرب، ومضى الليل في سكون، ومما تذكره الروايات الفرنسية عن الحادثة، أن الليل كان مقمرا وأن عملية المراقبة كانت سهلة بحيث لا يمكن أن يفر من الغار أحد دون اكتشافه،ولكن أضيف إلى ضياء القمر، لهيب النار الذي تزيده نسمات ليل يونيو تصاعدا ولمعانا. ومع ذلك فقد فر عربي من الغار عن طريق الوادي المتصل بالغار بعد أن أصيب برصاصة، ووصل إلى قايد قبيلة الزريقة سيدي العربي ليخبره بأن القبيلة بحاجة إلى الماء، وبدوره أخبر سيدي العربي "بيليسي" بأن القبيلة تموت عطشا، لكن هذا الأخير أصر على الاستسلام أو الموت(محمد عيساوي وشريخي نبيل،2011،ص 54).

روى رقيب الهندسة "موري" Mourrai أن جميع الجنود الذين استهدفتهم بعض الرصاصات تكالبوا على جمع الخشب، وأنه هو نفسه شارك في العملية بدافع الحقد فرغم أنه لم يكن مكلفا إلا بمراقبة ما يجري، ورغم وجود مفاوضات بين الحين والآخر فإن العقيد أصر على الاستسلام أو الموت خلال ربع ساعة، وعندما انتهت ربع ساعة ضاعف العقيد من عملية التدخين في مداخل الغار، كما قال بعضهم عملية تحميص العرب وشوائهم على النار بدم بارد(أبو القاسم سعد الله،2007،ص 228).

ومن شدة الفزع وهول المجزرة سارعت القبائل القاطنة في تلك النواحي منها قبيلة مديونة، العشابة، أولاد خلوف وبني زنطيس إلى إعلان الخضوع وتسليم ما لديها من أسلحة ومواشي ودواب اتقاء لشر ما رأوه من بشاعة المحرقة في غار الفراشيش ورغم أنّ العقيد قد أصابه الإعياء في منتصف الليل، فإنّه أعطى تعليماته باستمرار التحميص والشواء للنساء والأطفال.(فرانسوا ماسبيرو،2007، ص 210).

1.1.3 وصف مجزرة الفراشيح :

تذكر الروايات في وصف هذا المشهد المريع :« ...وقبل طلوع النهار بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار وكان ذلك إعلانا باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي تحاصره النيران والدخان في كل مكان... »(Saint Arnaud,1864 ,pp11-12). ونجد روايات أخرى تُحصي عدد القتلى الذي وصل ثمان مئة وخمسين شخصا (850)ماتوا خنقا.(شارل روبير أجيرون،1982، ص 34). أما ما كان يحدث داخل المغارة، يصفه لنا أحد الجنود الفرنسيين الذي شاهد بعينيه هذه الجريمة النكراء(محمد عيساوي وآخرون،2011، ص 112) ، التي ارتكبت ضد عدو أعزل ومغلوب على أمره، فقال : « إن القلم لعاجز عن وصف هذا المنظر الفظيع في منتصف الليل والقمر سدى علينا أنواره، كنا نرى كتيبة من الجيش منهمكة في إضرام سعير جهنمي وكنا نسمع و ياله من صوت رهيب، أنين خافت منخفض يتصاعد تصاعدا مريعا من صدور النساء،الرجال والبهائم...وفي غياهب تلك الليلة الحالكة، اشتبك الرجال والبهائم في عراك رهيب متنازعين عن شيئ من الهواء الطلق. »(فرحات عباس،2005، ص 51)

يصف لنا المؤرخ الفرنسي "كاميل روسي" Camil Rousset هذا المشهد الرهيب لعملية "بيليسي" بالعبارات التالية :« كان الحريق قد وصل إلى أمتعة اللاجئين، وفي الليل خيل للجنود أنهم يسمعون ضجة لا تكاد تبين وصيحات خانقة، ثم ساد صمت عميق، وفي وقت مبكر من الصباح استطاع بعض الرجال أن يخرجوا من المغارات، فسقطوا مخنوقي الأنفاس أمام الحرس، وكان الدخان الذي انتشر في المغارات كثيفا مؤذيا إلى حد أن الجنود لم يتمكنوا في بداية الأمر من الدخول(عمار عمورة، 2009، ص 228) ، و كنا بين الحين والآخر نرى مخلوقات بشرية مشوهة تخرج من المغارات زحفا على البطون، فيحاول آخرون ممن بقي متمسكا بمبادئه إلى آخر رمق يمنعوهم من الخروج...وحينما تمكنا في آخر الأمر من زيارة ذلك الجحيم بعد أن خدمت فيه النيران، عددنا أكثر من خمسمائة من الضحايا ما بين رجال ونساء وأطفال،وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة. »(مصطفى الأشرف،1984م، ص 113).

إن المشهد كان في منتهى الفضاعة، فالأرض المسودة كانت تحتضن الجياد،الرجال، النساء، الخرفان، الأطفال، الأسلحة والألبسة كلها احترقت أو استُحلت رمادا(هاينريش فون مالستن، 1976م، ص ص 238-239) ، وكانت الجثث مكدسة فوق بعضها البعض، وملتصقة مكونة نوعا من العصيدة البشرية، وكان الأطفال على أثداء أمهاتهم ومختفين تقريبا في ملابسهن.ووصف أحد الضباط الاسبان تلك الجريمة بقوله:« كانت الجثث عارية والأوضاع تشير على التشنجات التي تعرضوا لها قبل موتهم...والدم خارج من أفواههم»(محفوظ قداش، 2008م، ص 110)

هناك شخص آخر بارز في هذا المضمار : إنه "كافينياك" الرجل الجمهوري والمتقشف والذي لم ينتظر هذه الحملة للقيام بخنق الناس في المغارات، وكان المستهدفون هم بنو سبيعة ذاتهم، جرت

الواقعة سنة 1844م أي خلال الفترة التي كان فيها حاكما على " أورليانفيل". ولقد حدثنا "كانروبير" عن ذلك قائلا: « كنت حاضرا في أول واقعة من وقائع الخنق في المغارات.كنت مع فيلقي ضمن طابور تحت قيادة "كافينياك". قام بنو سبيعة بقتل المعمرين والقياد الذين تم تعيينهم من طرف الفرنسيين، فتوجهنا لمعاقبتهم، وبعد أن طاردناهم كالمجانين طيلة يومين انتهت بنا السبل أمام خانق جبلي يفضي إلى هوة سحيقة وفي جدار الجبل حفر طبيعية بشكل مغارات.دخل العرب في إحداها ...أطلقنا النار على المدخل وشرعنا نكدس الحطب هناك وعند المساء أضرمنا النار.في الغد خرج بعض أفراد القبيلة إلى مدخل المغارة ملتمسين الأمان من رجال المواقع الأمامية. فقد هلك من كان معهم من النساء والأطفال والرجال..تلك كانت أولى الوقائع المتعلقة بإضرام النار في المغارات. لم يتحدث أحد عن ذلك لأن الكولونيل "كافينياك" التزم الحذر كعادته فلم يفصل القول حول عدد العرب الذين ماتوا مختنقين بالدخان»(فرانسوا ماسبيرو، 2007، ص 244).

نشرت التقارير الرسمية عن عدد من كان داخل المغارة بحوالي خمسمائة من الضحايا، وهو ما ذهب إليه المؤرخ "كاميل روسي" (مصطفى الأشرف، ص 110) ، في حين أن الضابط الاسباني الذي سبق ذكره قدر عددهم ما بين ثمان مئة وألف ضحية وهو الرقم الأقرب للحقيقة والذي اكده احد الجنود في جيش الاحتلال، بقوله:" لقد عددنا سبعمائة وستين جثة يوم 20 جوان ولم نكن قد أفرغنا الكهوف نهائيا"(محمد عيساوي وآخرون،2011، ص 113)

لا حظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم أو داخل ثيابهن، كما أنه أهمل عدد الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها. لقد كان المنظر الذي وجدت عليه الجثث رهيبا ومرعبا حرك كل الضمائر وجعل بعضهم يقول: « إنه منظر فظيع لم يحدث مثله في التاريخ»(سعيد بورنان، 2015،ص 28).

وبتاريخ 11 جويلية1845م في غرفة النواب في باريس، تمت مساءلة أمير موسكوفا منددا بالقضاء على أولاد رياح قائلا: « إنها الفضيحة والدهشة» بهذه الكلمات القاسية ندد أمير موسكوفا بالقتل الذي ارتكب بسبق الإصرار والترصد من طرف عسكريين فرنسيين على "عدو بدون سلاح"، وذلك حسب ما نقلته الجريدة الجزائرية "الأخبار"،مطالبا الحكومة الفرنسية بتكذيب الخبر أو الإدانة السريعة للذين قاموا بهذه الجرائم.(محمد عيساوي وآخرون، 2011، ص115).

أما وزير الحربية الفرنسي"سولت" Soult ، فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من "بيليسي" وعدم نشره في جريدة المونيتور يونيفيرسال Monteur Universel كما جرت العادة، وبعد تردد كبير صرح قائلا: « أنا صبور أكثر من أي أحد، لكنني أعترف أنني لو كنت مكان بيليسي لفعلت مثلما فعل، سأكون قاسيا ولكن مثل هذا العمل في إفريقيا هو الحرب بنفسها».(محمد عيساوي وآخرون، 2011، ص115).

قام الجنرال "بيجو" بامتداح العقيد "بيليسي" على ما قام به نحو قبيلة أولاد رياح، وقامت صحيفة "دي ديبا" Le Journal Des Débats تمدح ضباط الجيش على أعمالهم في الجزائر، كما قامت صحيفة " الجزائر فرنسية" التي كان يصدرها "بيجو" في الجزائر بوصف الجريمة وأثنت على مرتكبيها. (Q.Lépiner, **s.d, pp 294-310**)

يروي المؤرخ "فوتي" Foutée في كتابه " تحقيق كهوف الظهرة" ما قاله "سانت آرنو" نفسه عن تلك العملية فقال:« فعل سانت آرنو ما أمكنه حتى لا تفلت أي فريسة عن قبضته، فسد باب الكهف بالبناء على 1500 عربي، منهم عدد كبير من الرجال والأطفال لم ينزل أحد سواي إلى الكهف، ولخصت عمليتي هاته في قرار سري حررته ببساطة، بأسلوب لا شعر فيه ولا عاطفة ودفعته إلى المارشال بيجو، فرغم ما يقول أصحاب البر والتقوى، فإني أعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة. إن الكولونيل مونتينياك كان له نصيب من الصواب فالجيش الذي تكون مهمته إبادة شعب لا يكترث بقوانين الحرب. فما الحريق إلا الحريق لا يضرم الإنسان النار إلا للإحراق والتدمير"(فرحات عباس،2005، ص 53).

تصدى "بيجو" لضجة الاستنكار التي أثارتها النفوس الطيبة وتصدى لمناورات أعدائه أيضا ولم يتنكر لمن كان تحت مسؤوليته من رجال أبدا. كتب "بيجو" في صحيفة " لومونيتور ألجيريان Le Moniteur Algérien" ما يلي : « بدلا من توبيخ هؤلاء فإنهم يستحقون المدح ثم أطلق وابلا من الانتقادات على "سولت" بواسطة برقيات يندد فيها تنديدا شديدا بما أظهره البعض من جهل وتعنيف وإذا رأت الحكومة أن ثمة عقوبة ما فينبغي أن يتم الاقتصاص مني شخصيا...إن الالتزام الصارم بالمشاعر الإنسانية سيؤدي إلى استدامة الحرب في إفريقيا إلى مالا نهاية، أو يؤدي على الأقل إلى تحفيز روح الثورة فيها ولن نتوصل أبدا إلى تحقيق أهداف المشاعر الإنسانية» (فرانسوا ماسبيرو، 2007، ص 247).

كتب "بيجو" إلى "غيزو" مهددا بتقديم استقالته ليتمكن بعدها من مخاطبة مجلس النواب بكل حرية وذلك بالضبط ما يخشاه الوزير الأول ذو الطبع الحذر، وذلك أيضا ما يخيف الملك، وكتب إلى صديقه "تيار" يقول : « في الآونة الأخيرة لم يعد العرب الثائرون هم أعدائي الحقيقيون وإنما أعدائي هم أولئك الموجودون في مصالح وزارة الحرب. إن الهجمات مسلطة علي من هناك يوميا... »(فرانسوا ماسبيرو، 2007، ص 247).

إن القول الفصل عن طبيعة دور "سانت آرنو"في هذه القضية وعن المشاعر والأحاسيس التي كانت تنتابه مختصرة في هذه العبارة التي يقول فيها: « إن المقام هنا مقام شرف وإني لفخور بكوني من المشاركين فيها»(فرانسوا ماسبيرو، 2007، ص 247).

بالإضافة إلى هذه المحرقة هناك محارق أخرى تفنن فيها جنرالات فرنسيين، من بينها مجزرة أو محرقة قبيلة بني صبيح بالشلف سنة 1844م، وقائد هذه المحرقة الجنرال"كافينياك"، وسبب هذه

المحرقة هو أن القبيلة رفض سكانها الخضوع لقوات الاحتلال الفرنسي، فلم يجدوا سبيلا للفرار أمامهم إلا إحدى المغارات بالمنطقة، وبعد أن كشف مكانها العدو الفرنسي ، قام العقيد بإشعال نار كبيرة أمام مدخل المغارة، أما الناجون من أهالي القبيلة تم إبعادهم إلى مكان آخر وهم مقيدون، وجمعوا في مغارة ثانية لينالوا نصيبهم من عذاب المحارق. (H.Toqueville,1988,pp 31-49)

2.3 إبادة كهف تنس:

في 08 أوت 1845م بعد ستة سنوات من مجزرة أولاد رياح اتخذ "دو سانت آرنو" "بيليسي" كقدوة وباغت 500 فلاح إختبؤوا بكهف جبال الظهرة بين تنس ومستغانم، رفض هؤلاء الاستسلام ولذلك قرر الإتيان بهم أحياء، وحسب ما يرويه هو بنفسه عن هذه القضية يقول: « لقد قمت بإغلاق كل المداخل بإحكام كما سأحفر مقبرة واسعة لأن الأرض ستواري سواة هؤلاء المتعصبين إلى الأبد لم ينزل شخص من الكهوف ولا يعلم أحد غيري أن هناك 500 قاطع طريق لن يذبحوا أبدا الفرنسيين غير أن التاريخ بين أن هناك من هو أكثر تعصبا.

اختار "دو سانت آرنو" قتل الأشخاص الأحياء حتى تكون ميتتهم طويلة فقد مات 500 جزائري من الجوع والعطش ونقص في الهواء، وإلا لا يمكننا وصف هذه الجريمة بأنها جريمة ضد الإنسانية.كما يُلاحظ هنا نية القضاء على قبيلة كاملة،والهدف الجهنمي واضح وهو اضعاف المقاومة الشعبية. هل كان "دو سانت آرنو" قادرا على قتلهم لو كانوا مسيحا(بوعلام نجادي،2007،ص ص307-308).

غير أنّ الحكام كانوا بحاجة إلى هؤلاء المجرمين من أجل إشباع حدسهم السياسي على حساب استئصال الشعوب قاطبة وبإنهاء نابليون بونابرت لكل تحليل إنساني لم يجد أفضل من هذا المجرم عديم الإيمان والمبدأ ومن أجل قمع العمال الباريسيين خلال الانقلاب العسكري في 02 ديسمبر1845م. هذه هي حرب الاستئصال التي يُتكلم عنها في باريس.إنّها حرب من أجل بعض الأشخاص لأنها مؤسسة باسم الحضارة، وفي هذه الدوائر نقول بخصوص هذه التجاوزات ومن دون التكلم عن السلم إلى حد الآن ما يلي: «إن فرنسا بسيرتها السياسية لا يهمها تجاوز حدود الأخلاق المبتذلة المهم عندها هو أنّ تشكل مستعمرة دائمة، وأن تعيد فيها الأصقاع البربرية إلى الحضارة الأوروبية ولمّا يتحول عمل ما إلى مصلحة الإنسانية يكون أقصر وطويل من جهة أخرى يعتبر الرعب أفضل طريق،من دون انتهاك قوانين الأخلاق والاجتهاد الدولي يمكننا محاربة أعدائنا الأفارقة بقوة الرصاص والحديد المرتبط بالجوع وبالتقسيمات الأهلية وبالحروب بين العرب والقبائل وبين قبائل التل والصحراء.يجب التضييق على حقولهم، وبالضريبة ستصير حياتهم مؤلمة تدريجيا إلى حد أن لا يبق لهم خيار عدا الثورة أو الانضواء تحت لواء الجنود الفرنسيين".(بوعلام نجادي،2007،ص ص307-308).

يوضح لنا هذا النص وحده الأسباب التي تؤدي بالجزائر إلى أكثر من 20 ثورة و انتفاضة خلال القرن التاسع عشر مع بداية الاستعمار، يفسر هذا النص ويبرر حرب التحرير من جهة والجرائم ضد الإنسانية من جهة أخرى.

4. خاتمة:

نستنتج من خلال ما سبق ذكره، أن فرنسا منذ الغزو استخدمت كل الوسائل وشتى الطرق من أجل السيطرة على البلاد والتحكم فيها ، واستغلال خيراتها واستعبادأهلها ،دون مراعاة لحقوق الإنسان المواطن، ودون أن تأخذهم رأفة إنسانية نحو الأطفال والشيوخ الكبار، وحتى الحيوانات كذلك، فهي الأخرى لم تسلم من بطش العدو وآلته الحربية، هذه السياسة النكراء التي طبقها العدو الغازي في كل شبر من الأراضي الجزائرية، ولا سيما ناحية الغرب الجزائري وبالتحديد منطقة الظهرة التي لازال سجلها التاريخي يحكي ويروي للرائي والمستمع كيد فرنسا في المنطقة، وهذا كله إن دل على شيء إنّما يدل على أنّ سياسة المجازر والمحارق ما هي إلاّ تعبير صادق عن منطق الغاية تبرر الوسيلة ، وتعتبر دلالة على فشل سياسة الإغراء الفرنسية لأبناء الجزائريين بالوقوف إلى صفها، مما افرز في الأخير ثلة من الجزائريين تعالت أصواتهم وصيحاتهم لمحاربة فرنسا وإخراجها من المنطقة سواء ما بررته المقاومات الشعبية أو ما سيظهر في الثورة التحريرية بمنطقة الشلف سنة 1954م..

5. قائمة المصادر والمراجع:

1.5 قائمة المصادر

1.1.5 المصادر بالعربية:

- - عباس فرحات ،(2005)، **ليل الاستعمار**، ترجمة :أبو بكر برحال، الجزائر، دار القصبة للنشر.

- ماسبيرو فرانسوا،(2007)، **سانت آرنو أو الشرف الضائع**، الجزائر، دار القصبة للنشر والتوزيع.

2.1.5 المصادر بالفرنسية:

- Faucon Narcisse(1889). **Le Livre d'Or DE l'Algérie(Histoire politique. militaire. administrative. Evenement et faits principaux.biographie dex hommes ayantmarque dans l'armée.les sciences.les lettres.ect.de 1830à1889),**tome 01,Paris, Challamel et cit éditeur s.librairie Algérienne et coloniale.5rue Jacob rt furstenberg.

- H.Toqueville,(1988), **Travail sur l'Algérie1841 de colonisation en Algérie**,Beuxelles,edition complexe.

- -Quesnot (F),**(1851), L'armée d'Afrique depuis la conquete d'Alger**, Paris librairie Furne.

- Saint- Arnaud,(1864), **Lettres du maréchal de Saint- Arnaud, 1832-1854**,tome 02, paris, troixieme edition, librairie edition.

2.5 قائمة المراجع :

- بورنان سعيد،(2015م)،**روّاد المقاومة الوطنيّة في القرن التّاسع عشر شخصيّات بارزة في كفاح الجزائر(1830-1962م)**، ج1، ط3،الجزائر، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

- سعد الله ابو القاسم،(2007)، **الحركة الوطنيّة الجزائريّة1830-1900**،الجزء1، الجزائر، دار البصائر.

- عاشوراكس احمد محمد ،(1990)،**صفحات تاريخية خالدة من الكفاح الجزائري المسلح ضد جبروت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني 1500-1962م**، الطبعة الأولى،ليبيا، منشورات المؤسسة العامة للثقافة.

- عمورة عمار،(2009) ،الجزائر بوابة التاريخ، **الجزائر خاصة ماقبل التاريخ إلى 1962م**،الجزء02، الجزائر، دار المعرفة.

- عيساوي محمد و شرخي ونبيل،(2011م)،**الجرائم الفرنسية في الجزائر اثناء الحكم العسكري(1830-1871)**، الجزائر ،مؤسسة كنوز الحكمة.

- فون مالستن هاينريش ،(1976)، **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا**، ترجمة أبو العيد دودو، الجزء الأول،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- قاصري محمّد السعيد،(2012م)،**دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر1830-1962م**،دار الإرشاد للنّشر.

- قداش محفوظ،(2008)، **جزائر الجزائريين،تاريخ الجزائر 1830-1962م** ترجمة محمد المعراجي ، الجزائر، منشورات ANEP

3.5 المقالات :

-R.Bousquet ,**(1907),L'affaire des grottes du dahra19-20juin1845** ;Revue Africaine ,tome

4.5 الأطروحات :

- تلمساني بن يوسف،(2004-2005) ،**_التّوسّع الفرنسي في الجزائر1830-1870م** أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التّاريخ الحديث والمعاصر، قسم التّاريخ، كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة الجزائر2 ، الجزائر.

-شلبي شهرزاد ،(2008-2009م)، **ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر**، مذكرة ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، تخصص تاريخ الأوراس، قسم التاريخ والآثار ،، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة